فَصلٌ في قِصَّة إشموئيل وطالُوت والتابُوت وجالُوت[١]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٤٦].

اختلفوا في هذا النبي على أقوال: أحدها: أنه إشموئيل.

واختلفوا في نسبه على أقوال:

أحدها: أنه إشموئيل بن بالي بن علقمة بن يَرخام بن أليهو بن صوف بن علقمة بن ماحث[٢] بن عموصا بن عازراء[٣] بن هارون بن عمران، قاله وهب.

والثاني: أن إشموئيل بالعربية: إسمعيل بن بالي، قاله مقاتل.

والثالث: إشموئيل بن هَلْقاثا، قاله مجاهد، ولم ينسبه أكثر من ذلك[٤]، قال: واسم أمه حنة.

وقال ابن قتيبة: لم يكن بينه وبين يوشع نبي[٥]. وقد وهم لما ذكرنا ما بينهم من الأنبياء، مثل إلياس واليسع وغيرهما.

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أن القائل يوشع بن نون، قاله قتادة[٦].

والثالث: شمعون بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب.

والأصحُّ أنه إشموئيل وعليه عامة أرباب السِّير، وشمعون لم يكن نبياً، وإنما هو ابن عجوز اسمها صفية، سألت الله أن يرزقها ولداً على الكبر فرزقها فقالت: سمع الله دعائي. والسين تقلب شيناً بالعبرانية.

---

(١) في (ب): الباب الثالث والعشرون في قصة أشمويل . . . وانظر لهذه القصة: تفسير الطبري ٥/ ٢٩١، وتاريخه ١/ ٤٦٧، و«عرائس المجالس» ص ٢٦٥، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٠٨، و«زاد المسير» ١/ ٢٩٣، و«تفسير البغوي» ١/ ٢٢٦، و«الكامل» ١/ ٢١٧، و«البداية والنهاية» ٢/ ٢٨٩.

(٢) في (ط): باحث.

(٣) في «ب»: عازر.

(٤) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٧.

(٥) انظر «المعارف» ص ٤٤.

(٦) انظر «زاد المسير» ١/ ٢٩٢.

ذكر قصته

قال علماء السِّير كابن إسحاق والكلبي ووهب والسدي وغيرهم، قالوا: ولما قبض حِزقيل عظمت الأحداث في بني إسرائيل فظهر لهم عدوٌّ من العمالقة يقال له: ليبشاثا، وهم قوم جالوت، وكانت منازلهم على ساحل البحر الرومي[١] بين مصر وفلسطين. فقصدوا بني إسرائيل فقتلوهم وسبَوهم وأجلَوهم عن ديارهم، وضربوا على من بقي منهم الجزية، وأسروا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين غلاماً، وأخذوا منهم التوراة ولقوا منهم بلاءً وشدة، ولم يكن لهم نبيٌّ يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً يقاتلون معه العمالقة، وكان سبط النبوَّة قد هلك فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيتٍ مخافةَ أن تلد جاريةً فتبدلها بغلام لما رأوا من رغبة بني إسرائيل في ولدها، فجعلت المرأة تسأل الله أن يرزقها غلاماً فرزقها إشموئيل، ومعناه: «سمع الله دعاءها». فلما كبر الغلام أسلمته أمه في بيت المقدس يتعلم التوراة، وكفله شيخ من علمائهم وتبناه، فلما بلغ الغلام وأراد الله أن يبعثه نبياً، أتاه جبريل وهو نائم إلى جانب الشيخ فناداه بلغة الشيخ: يا إشموئيل، فقام الغلام فزعاً فقال: يا أبتاه دعوتني؟ فكره أن يقول: لا، فقال: يا بني، ارجع فنم فرجع، فناداه جبريل ثانياً وثالثاً فقال الشيخ في الرابعة: إن دعوتك فلا تجبني، فظهر له جبريل بالرسالة وقال: اذهب إلى القوم، فذهب إليهم وقال: إنَّ الله قد أرسلني إليكم، فكذبوه وقالوا: استعجلت النبوة ولم يُؤْذَنْ لك، فإن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتلْ في سبيل الله فيكون ذلك أمارة نبوَّتك. وكان قِوامُ أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءَهم، وكان الملك هو الذي يسيِّرُ الجموع، والنبي يقيم له أمره ويسدِّدُه، وتأتيه الأخبار من ربِّه تعالى[٢].

وقال وهب: أقام فيهم إشموئيل أربعين سنة يتهيؤون لقتال جالوت وعرف ذلك، فلما قالوا: ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ

(١) في «ب»: بحر القلزم.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٦.

ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾[البقرة: ٢٤٦] وهذا استفهام شك، ومعناه: لعلكم لا تقاتلون مع ذلك الملك فلا تفعلون ما قلتم ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] وهذا قول من بقي منهم ﴿وَأَبْنَآئِنَا﴾ أي: وأبعدنا عن أبنائنا ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فرض الجهاد ﴿تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة: ٢٤٦] وهم الذين عبروا النهر. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

قال ابن الجواليقي: وطالوت اسم أعجمي، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾[البقرة: ٢٤٩] قال: فترك صرفه دليل على أنه أعجمي، إذ لو كان فَعَلُوتا من الطُّول كالرَّغَبوت والرَّهَبوت والتَّرَبوت لصُرف، وإن كان قد روي في بعض الآثار أنه كان أطول من كان في ذلك الوقت[1].

قلت: وطالوت ليس باسم بل صفة لأنه طال الخلق بصفته وصورته وقوَّته.

وقد اختلفوا في اسمه على قولين: أحدهما: شاول أو شاؤول بن قيس بن أبيال بن ضِرار بن بحرت بن أَفِيْح بن إيشا بن بنيامين بن يعقوب.

واختلفوا في مهنته على أقوال:

أحدها: أنه كان يدبغ الجلود. قاله وهب.

والثاني: كان يرعى الحمير، قاله السُّدي.

والثالث: كان يستقي الماء على حمار له من النيل، قاله مقاتل.

والرابع: خَربَنده[2]، قاله مجاهد.

وقال وهب: ضلَّت حُمُرٌ لأبيه فخرج مع الغلام يطلبها، فمرَّ على بيت إشموئيل فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي لعلَّه يدعو لنا فترجع الحُمُر إلينا. وكان قوم إشموئيل لما طلبوا منه ملكاً أُتِيَ بعصا وقَرْن فيه دُهْنُ القدس وقيل له: الملكُ الذي تطلبونه طوله على طول هذه العصا، فإذا دخل عليك وَنَشَّ الدهنُ في هذا القرن فادهَن به رأسه فهو ملك بني إسرائيل وَمَلِّكْهُ عليهم. فقاسَهم كلَّهم بالعصا فلم يكونوا مثلها،

(١) «المعرب» ص ٢٧٥ـ٢٧٦، والتربوت: الذلول من الإبل.

(٢) خربنده: حارس الحمار، مؤجر الحمار. انظر «المعجم الذهبي» ص ٢٣٥.

وكان على طولها، ونشَّ الدهن في القرن، فدهنَ به رأسه فلم ينزل على جبينه منه شيء فقال: أنت ملك بني إسرائيل، قال: أما علمتَ أن بيتي أدنى البيوت؟ فقال: بلى، ولكنَّ الله أمرني بذلك، قال: فأريد أمارة أخرى، قال: ترجع إلى أبيك وقد عادت الحمير. فرجع وقد رجعت.

ثم إن إشموئيل جمع بني إسرائيل وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[البقرة:٢٤٧] أي: على الجيوش ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٢٤٧] أي: كيف يكون هذا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ولم نُذْكَر؟ وإنما أنكروا هذا لأنه كان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوَّة، وسبط ملك، فسبط النبوة: سبط لاوي بن يعقوب ومنه موسى وهارون عليهما السلام، وسبط المملكة: وهو سبط يهوذا ابن يعقوب ومنه كان داود وسليمان، ولم يكن طالوت لا من سبط النبوَّة ولا من سبط المملكة، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، وهم من أحقر الأسباط وأقلّهم، كانوا ينكحون النساء على قوارع الطريق نهاراً، فغضب الله عليهم فنزع منهم النبوَّة والملك ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[البقرة:٢٤٧]بل هو دباغٌ لا قدْرَ له ولا قيمة ولا أصل. فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ بالحرب ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ بالطول والقوة. وكان يفوق الناس برأسه، وكان أعلم بني إسرائيل في زمانه، وأنه أوحى الله إليه حين آتاه الملك ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فلا تنكروا ملكه مع كونه من غير أهل المملكة، فإن الملك ليس بالوراثة وإنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧] بنسبه حين بعثه عليكم. ثم قالوا: فما آية ملكه؟ قال ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[(١)].

والتابوت بالتاء عربي. وفي حديث البخاري عن زيد بن ثابت: لما أمره أبو بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن واختلفوا في التابوت، فقال زيد بن ثابت: اكتبوه بالهاء تابوه، وقال عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي: اكتبوه بالتاء: تابوت، فرفع اختلافهم إلى عثمان رضي الله عنه فقال: اكتبوه بالتّاء، فإنها لغة قريش فكتبوه[(٢)].

---

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٨ـ٢٦٩.

(٢) هو ضمن حديث طويل أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٠٦). وأخرجه البخاري (٤٩٨٦) مطولاً لكن دون موضع الشاهد.

حديث التابوت

قال وهب: أنزل الله على آدم عليه السلام تابوتاً فيه صورة الأنبياء، أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ، وفيه بيوت بعددهم وهي مختلفة الألوان، فبيت محمد ﷺ من ياقوتة حمراء. وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين من عود الشِّمشَار الذي تتخذ منه الأمشاط، وكان مذهَّباً. ومات آدم عليه السلام فورثه شيث، وتوارثه بنو آدم صاغراً عن كابر إلى إسماعيل بن إبراهيم، فورثه قيدار لأنه كان أكبر ولده، فنازعه ولد إسحاق فيه وقالوا: قد صُرِفَتِ النبوَّة عنكم يا بني إسماعيل إلينا، ولم يبق لكم غير هذا النور الواحد يعنون به نور محمد ﷺ، ولا يظهر إلى آخر الزمان، فادفع إلينا التابوت يكون عندنا، فامتنع عليهم قيدار وقال: هذا وصية أبي لا أعطيه أحداً من العالمين، فذهب ذات يوم يعالجه ليفتحه وكان مقفلاً فلم يقدر على فتحه، فناداه منادٍ من السماء: يا قَيدار، ليس لك على فتحه سبيل، إنه وصية نبي ولا يفتحه إلا نبي، فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله. فحمل قَيدار التابوت على عنقه إلى الشام يريد يعقوب في أرض كنعان، فلما قرب منه صَرَّ التابوتُ صَرَةً سمعها يعقوب، فقال لبنيه: أقسم بالله لقد جاء قَيدار بالتابوت فقوموا إليه، فقاموا جميعاً ويعقوب معهم. وكان قَيدار قد جاء من مكَّة لأنه كان يسكنها، فلما التقيا قال له يعقوب: أُبَشِّرُكَ، قال: بماذا؟ قال: ولدت لك البارحة الغاضرة غلاماً، قال: وما علمك وهي بالحرم وأنت بالشام؟ فقال: رأيت أبوابَ السماء قد فتحت، والملائكة قد نزلت، ونور محمد ﷺ قد أشرق. فسلَّم إليه التابوتَ وعاد إلى مكة، فوجد امرأته قد ولدت غلاماً فسمَّاه: حملاً، وفيه نور محمد ﷺ.

وأقام التابوت عند أولاد يعقوب يتوارثونه إلى أيام موسى، فأخذه فجعل فيه فتات ألواح التوراة ومتاعاً من متاعه وعصاه ونعليه وعمامة هارون ولوحين من التوراة، وكانا من الياقوت الأحمر، فكانوا يتوارثونه إلى أن غلبت عليه العمالقة، وبعث الله إشموئيل فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: بالتابوت ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1].

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٦٩ـ٢٧٠.

واختلفوا في السكينة على أقوال:

أحدها: أنها ريح خَجُوج هفَّافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان، قاله عليٌّ عليه السلام.

والثاني: أن رأسها رأسُ هرة ميِّتة، وذنبها ذنب هرَّة، كانت إذا صرخت في التابوت أيقنوا بالنصر، وكان يسمع منها صوت الهر، قاله مقاتل.

والثالث: أنها ريحٌ رأسها رأس هرة ولها جناحان، قاله مجاهد.

والرابع: أنها طَسْت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، قاله ابن عباس.

والخامس: كان فيه روح من الله يتكلم ويصوِّت، قاله وهب.

والسادس: أن المراد بالسكينة: السكون والطمأنينة، ففي أي مكان كان التابوت اطمأنُّوا إليه وسكنوا، قاله أهل المعاني[1].

﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[البقرة: ٢٤٨] أي: عند رجوعه إليهم.

وقال السُّدي: كانوا إذا اختلفوا في شيء تكلَّم التابوت وحكم بينهم، وإذا حضر القتال قدَّموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوِّهم. فلما عصوا وأفسدوا نزعه الله منهم.

قال: وسبب نزع التابوت منهم أنه كان للشيخ ـ واسمه عيلي ـ الذي ربى إشموئيل ابنان أحدثا في القربان شيئاً لم يكن فيه. كان للقربان كَلَّابان يسوطانه على النار، فأحدثا كلاليب وتعرَّضا للنساء، فغضب الله على بني إسرائيل وسلَّط عليهم العمالقة فأخذوا التابوت، فأُخبر عيلي فشهق شهقةً ومات، وَمَرِجَ أمر بني إسرائيل حتى بعث الله طالوت ملِكاً، وهذا قول السُّدي.

أما وهب، فإنه قال: إنما أُخذ التابوت قبل هذه بمدة طويلة[2]، وقد ذكرناه.

ذكر ردِّ التابوت إلى بني إسرائيل

قال علماء السير: ولما أراد الله أن يردَّ التابوت على بني إسرائيل كانت العمالقة قد

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٠.

(٢) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٦٩ـ٤٧٠.

دفنته في قرية من قرى الساحل بين غَزَّةَ والأطرُون يقال لها: أزدود، وكانوا قد جعلوه تحت صنم لهم، فأصبحوا يوماً والصنم تحته، فأخذوا الصنم وسمَّروه على التابوت، فأصبحوا والصنم تحته والأصنام كلها منكسة الرؤوس، فأخرجوه من بيت الأصنام وحملوه إلى قرية أخرى. فأخذ أهلَ القرية وجَعٌ في حلوقهم فمات أكثرهم؛ فقالت لهم جويرية من بني إسرائيل كانت عندهم من بنات الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون مادام هذا التابوت فيكم، فأخرجوه عنكم. قالوا: كذبتِ، قالت: آيةُ ذلك أن تضعوا التابوت على عَجَلة وتعلقوها على بقرتين لهما أولاد، وتحبسوا أولادهما، فإنهما تنطلقان بالتابوت إلى أرض بني إسرائيل ثم تعودان إلى أولادهما، ففعلوا ذلك، فخرجت البقرتان به ووكل الله بهما أربعة أملاك يسوقونهما، وأقبلتا حتى وضعتاه في أرض بني إسرائيل وعادتا إلى أولادهما.

وقيل: أقبلت الملائكة تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه، حتى وضعته في دار طالوت، فأقروا له بالملك راضين بعد أن كانوا ساخطين[١].

وروى عطاء عن ابن عباس قال: التابوت وما فيه في بحيرة طبرية لا تقوم الساعة حتى يظهر[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾[البقرة: ٢٤٩] أي: شخص، وأصل الفصل: القطع كقوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] واختلفوا في عددهم على أقوال:

أحدها: أنهم كانوا ثمانين ألفاً، قاله مقاتل.

والثاني: تسعين ألفاً، قاله مجاهد.

والثالث: ست مئة ألف، لم يتخلَّف عنه إلا الكبير لكبره والصغير لصغره وصاحبُ العذر لعذره، قاله الربيع بن أنس.

وكان خروجهم من بيت المقدس، والتابوت بين أيديهم، فلما رآهم طالوت قال:

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٠ـ٤٧١، و«عرائس المجالس» ص ٢٧٠ـ٢٧١.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧١.

لا حاجة لي فيما أرى، لا يخرج معي رجل بنى بناءً لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة وهو مشغولٌ بها، ولا مديون، ولا من تزوَّج امرأة ولم يدخل بها، ولا أبتغي إلا الشابَّ النشيط الفارغ. فاجتمع معه مما شرط ثمانون ألفاً، وكان الحرُّ شديداً، وكانوا في قلّةٍ من المياه، فسألوا طالوتَ أن يسأل لهم ربَّه أن يجري لهم نهراً، فقال طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾[البقرة:٢٤٩] أي: مختبركم ليبلو طاعتكم، وهو أعلم(١).

واختلفوا فيه:

فقال ابن عباس: هو الأُردُنُّ نفسه. وقال الربيع: نهر بين الأُردُنِّ وفلسطين عذب ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني وطاعتي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي: يشرب منه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ عبَّر عن الشرب بالطعم ـ ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[البقرة:٢٤٩] وقرأه ابن مسعود: «إلا قليلٌ» بالرفع على الاستئناف(٢).

واختلفوا في القليل الذين لم يشربوا على قولين:

أحدهما: أنهم كانوا أربعة آلاف، قاله السُّدي.

والثاني: ثلاث مئة وبضعة عشر، وهو الأصح(٣). والدليل عليه حديث البراء بن عازب قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «أنتمُ اليومَ على عِدَّة أصحابِ طَالوتَ حينَ عَبرُوا النَّهرَ، وما جَازَ معَهُ إلا مُؤمِنٌ»(٤). قال البراء: وكنا يومئذٍ ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً.

وقال ابن عباس: من اغترف غُرفة قويَ قلبُهُ وصحَّ إيمانه، وعبر النهر سالماً، وكفته تلك الغُرفَة لنفسه ودوابِّه؛ والذين خالفوا وشربوا من النهر أكثرَ من غُرفة اسودَّت وجوههم، وغلبهم العطش ولم يَرْوَوْا، وبقوا على شطِّ النهر، وجبُنوا عن لقاء العدوِّ،

(١) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧١ـ٢٧٢.

(٢) تفسير الثعلبي ٢/ ٢١٨، والبحر المحيط ٢/ ٢٧٨ وزاد نسبته إلى أبيّ والأعمش.

(٣) انظر «تفسير البغوي» ص ١٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٩٥٧) عن البراء موقوفاً عليه.

ولم يشهدوا الفتح.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[البقرة: ٢٥٠] الآية. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[البقرة: ٢٥١] لما نذكر.

وقال وهب وغيره: وكان ممن جاوز النهر إيشا بن عويد أبو داود، ومعه ثلاثة عشر ابناً له، داود أصغرهم، فقال له داود: يا أبت، ما أرمي بقذّافتي شيئاً إلا صرعته فقال: ابشر يا بني، فإن الله قد جعل رزقك في قذافتك. وقال له يوماً آخر: يا أبت، إني وجدتُ الأسدَ رابضاً بين الجبال فركبته وأخذت بأذنيه فلم يهج بي، فقال: أبشرْ يا بنيَّ، فإن هذا خير يريده الله بك. ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبت، إني لأمشي بين الجبال وأُسبِّح فما يبقى جبلٌ إلّا ويسبِّح معي، فقال: أَبشرْ يا بنيَّ، فإن هذا خير أعطاك الله إياه[1].

وقال الكلبي: أرسل جالوت إلى طالوت: ابرز أنتَ إليَّ أو أَبْرِزْ لي مَن يقاتلني، فإن قتلني فلكم ملكي، وإن قتلته فلي ملككم. فشقَّ ذلك على طالوت ونادى في عسكره: من قتل جالوتَ زوَّجْتُهُ ابنتي وناصَفْتُهُ ملكي، فهاب الناسُ جالوتَ لشدَّته، ولم يكن في زمانه أقوى منه ولا أشجع، يهزمُ الجيوشَ وحده، وكانت له بَيْضَةٌ فيها ثلاث مئة منٍّ من حديد. فشكا طالوت إلى إشموئيل وسأله أن يسأل الله، فسأله، فأوحى إليه: يقتله ولدٌ من أولاد إيشا، فدعا إشموئيل إيشا فقال: اعرضْ عليَّ أولادك، فأخرجَ له اثني عشر ولداً أمثال السواري، فجعل يعرضهم واحداً واحداً، فأوحى الله إليه: ليس في هؤلاء من يقتله، وإنما يقتله داود، فطلبه إشموئيل منه، فقال: ليس لي ولد اسمه داود، وإنما قال ذلك: لحقارته ودمامته وقصره، فأوحى الله إليه: كَذَبَ، له ولدٌ اسمه داود. فقال له: إنَّ الله يكذِّبك، فقال: صدق الله، لي ابنٌ صغير اسمه داود استحييت أن يراه الناس لحقارته، قال: فأين هو؟ قال: في الغنم يرعاها. وكان داود رجلاً قصيراً مصفارّاً مسقاماً أزرق أمغر أو آرط لا شعر عليه. فأخبره طالوت فخرج مع الناس في طلبه، فوجد الوادي قد مدَّ بينه بين الزريبة ـ وهي الحظيرة التي تروح إليها الغنم ـ نهرٌ عظيم، وإذا بداود يحملُ شاتين شاتين ويجوز بهما الوادي ولا يخوض الماء، فقال: هذا هو بغير شكٍّ.

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٢. «عرائس المجالس» ص ٢٧٢ـ٢٧٣.

وكان الله قد بعث إلى إشموئيل تنُّوراً من حديد وقرناً فيه دهن وقال: من ملأ هذا التنور، ونشَّ على رأسه هذا الدهن، ولم يسلْ على وجهه فهو يقتل جالوت، فعرض ذلك على أولاد إيشا فلم يرَ شيئاً، فلما رآه طالوت وضع القرن على رأسه ففاض وأدخله التنور فملأه، فقال له طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوِّجك ابنتي وأقاسمك ملكي ـ أو: وأجري خاتمك في ملكي ـ قال: نعم. فأخذه ورجع به إلى العسكر فمرَّ داود على حجر فناداه: يا داود، احملني فإني الحجر الذي قتل بي موسى ملك كذا وكذا، فحمله، فناداه آخر: يا داود احملني فأنا الذي قتل بي هارون ملك كذا وكذا، فحمله، ومرَّ بآخر فناداه: احملني فإني حجرك الذي تقتل بي جالوت، وقد خبأني الله لك؛ فحمل الجميع في مخلاته؛ ودعا جالوت للبراز فقال طالوت لداود: خذ فرساً ودرعاً ورمحاً ففعل، وبرز لجالوت ثم رجع عنه، فقال الناس: جبن الغلام، فقال له طالوت: ما الذي بك؟ فقال: دعني أقاتل كما أريد، فقال: افعل، فنزع الدرع فأخذ مخلاته فتقلَّدها والحجارة فيها، وأخذ مقلاعه بيده، وجاء ماشياً فلما نظر إليه جالوت ألقى الله في قلبه الرعب وقال: أنت تبرز إلي بمقلاع وحجر كما تقاتل الكلب، وأنا قاتل الملوك وهازم الجيوش؟! قال داود: أنت شرٌّ من الكلب. ثم قال: بسم الله إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم أخرج الأحجار، فصارت حجراً واحداً، وتركها في مقلاعه ورمى بها، فسخَّر الله الريح فحملت الحجر، فأصاب طرف أنف البيضة فخالط دماغ جالوت وخرج من قفاه، وقتل من خلفه ثلاثين رجلاً وانهزم القوم وجرَّ داودُ جالوتَ برجله حتى ألقاه بين يدي طالوت فكبَّر الناس وفرحوا[1].

واختلفوا في مكان الوقعة: فقال قوم: بفلسطين من نواحي الرملة، وقيل: في الرملة عند عين الجالوت، وقيل: على بَيسان. وذكر أبو القاسم في «تاريخ دمشق» أنه قتله بمرج الصفَّر عند قصر أم حكيم[2]. والأصح أنه قتله بأرض القدس والساحل.

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وبين قوله في حقِّ نبينا محمد ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٢ـ٤٧٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٣ـ٢٧٤.

(٢) «تاريخ دمشق» ١٧/ ٨٠.

[الأنفال: ١٧]؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن داود لم يكن معروفاً في ذلك الزمان ولم يكن مذكوراً، وكان قد شرط له طالوت أن يزوِّجه ابنته ويقاسمه ملكه، فأضيف القتل إليه ليجب الوفاء بشرطه، ونبينا ﷺ كان مشهوراً معروفاً لم يشترط لأحد شيئاً.

والثاني: أن العلماء قد اختلفوا في زمن النبي ﷺ، قال مجاهد: كان ذلك يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ حصاةً فضرب بها وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا[١]. وقيل: كان ذلك يوم خيبر، رمى بسهم فوقع في جبين كنانة بن أبي الحقيق على فرسه فقتله. وقيل: كان ذلك في يوم حنين فعجب المسلمون من ذلك فأراد الله أن يصرف عن رسوله العين، لئلا يعجبوا، فأضافه إلى نفسه.

ورجع طالوت بمن معه إلى البيت المقدس، وذكر الناس داود بخير وأثنوا عليه. وجاء داود إلى طالوت وقال: أنجزْ لي ما وعدتني، فقال: أتريد بنتَ الملك بغير صداق؟ قال: ما شرطت عليَّ صداقاً، وليس لي شيء، فقال: لا أكَلِّفك ما لا تطيق، إنَّ بجبالنا أعداءً لنا وأنت رجلٌ جريء، اقتل منهم مئة رجل وهم غُلْفٌ وأتني بغلفهم حتى أزوجك، فذهب داود ففعل ذلك، فزوَّجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه[٢].

ومال الناس إلى داود فحسده طالوت وأراد قتله وعمل الحيلة فيه. قال وهب: فجاء رجل يقال له: ذو العينين إلى بنت طالوت وأخبرها فقالت لداود: إنك الليلة مقتول، قال: ومن يقتلني؟ قالت: أبي، فقال: وهل أذنبتُ ذنباً؟ قالت: لا، عليك أن تغيب الليلة، فقال: لا، إن أراد أبوك ذلك لا أقدر على الخروج، ولكن ايتيني بزِقٍّ من خمر، فأتته به فوضعه على سريره موضع منامه وغطاه ودخل تحت السرير. وجاء طالوت نصف الليل فضربه بالسيف فسال الخمر، فلما وجد ريح الشراب قال: رحم الله داود ما أكثَر شُرْبَهُ للخمر. فلما أصبح علم أنه لم يصنعْ شيئاً فقال: إن رجلاً طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدركَ ثأره مني، فاحترس وأغلق أبوابه، فأتاه داود ليلةً وهو نائم، فأعمى الله الحرس عنه، فدخل عليه فوضع عند رأسه سهماً وعن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٥/ ١٦٧٣.

(٢) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٤ـ٢٧٥.

يمينه سهماً وعن يساره سهماً وعند رجليه آخر وذهب، فاستيقظ طالوت ورأى السهام فقال: يرحم الله داود، هو خيرٌ مني، ظفر بي فعفا عني، وأردت هلاكه وما عفوت عنه. ثم أتاه ليلة أخرى، فقطع شعرات من لحيته وبعض ثوبه، فلما رأى طالوت ذلك قال: هذا قاتلي، فطلبه أشدَّ الطلب، فخرج داود إلى الجبال فأقام مع المتعبدين[١].

وطعن العلماء على طالوت[٢] فأغرى بقتلهم، فجعل كلما نهاه أحد منهم قتله حتى أفناهم. وأتي بامرأة من بيت النبوَّة تعرف الاسم الأعظم ـ وكانت أم إشموئيل وقيل: كانت أم اليَسَع وقد عمَّرت ـ فأمر جبَّاره بقتلها فرحمها الجبار وقال: لعلَّنا نحتاج إلى عالم فتركها[٣].

ثم إن الله أوقع في قلب طالوت الندم والتوبة على ما فعل، فأقبل على البكاء والنحيب حتى رحمه الناس. وكان يخرج إلى المقابر كلَّ يوم يبكي ويندب نفسه ويقول: أنشد الله من عرف لي توبةً إلا دلَّني عليها، فناداه منادٍ من القبور: يا طالوت، أما كفاك أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتاً، فازداد بكاؤه، فرحمه الجبار الذي أمره بقتل العجوز وقال له: إنما مثلك كمثل رجل نزل قريةً عشاء وصاح ديك فتطيَّر منه. فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلا ذبحتموه، ونام وقال لأصحابه: إذا صاح الديك فأذنوني حتى أدلج فقالوا: وهل تركتَ ديكاً يُسْمَعُ له صوت. وكذا أنت أيها الملك، وهل تركت في الأرض عالماً يفتيك إلا قتلته؟ فازداد بكاؤه، فقال له الجبار: أرأيتَ إن دللتك على عالم أتقتله؟ قال: لا. فأخبره بقصة العجوز التي تعرف اسم الله الأعظم فسألها فقالت: والله ما أعرف له من توبة إلا أن يأتي إلى قبر إشموئيل ـ وقيل: كانت أُمَّ إشموئيل ـ فيناديه لعلَّه أن يدلَّه، ففعل، فجاءت العجوز ومعها طالوت، فبكت وتضرعت عند قبر إشموئيل، ودعت بالاسم الأعظم، فقام إشموئيل ـ وقيل: كانت أمَّ اليَسَع وكانت قد عمرت ـ ينفض التراب عن رأسه، فلما نظر إليهم قال: أقامت الساعة؟ قالوا: لا، ولكن هذا طالوت، قد جاء يسأل هل له من توبة؟ فقال إشموئيل ـ وهو الأصحُّ ـ:

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٣. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٥ـ٢٧٦.

(٢) في «ب»: داود.

(٣) انظر «عرائس المجالس» ص ٢٧٦.

ويحك يا طالوت، ما أحدثت بعدي؟ فقال: لم أدعْ شيئاً من الشرِّ إلا فعلته، وقد جئت أطلبُ التوبة، قال: فكم لك من الولد؟ قال: عشرة، قال: ما أعلم لك توبةً إلا أن تتخلى عن ملكك، وتخرج أنت وولدك في سبيل الله، فتقدِّم واحداً بعد واحد بين يديك فيُقتلون عن آخرهم، ثم تقاتل أنت فتُقتل. وعاد إشموئيل إلى القبر فانضمَّ عليه، فرجع طالوت أحزن ما كان، فبكى حتى سقطت أشفار عينيه خوفاً أن لا يطاوعه ولده، فدخلوا عليه وسألوه عن حاله فأخبرهم فقالوا: وإنك مقتول؟ قال: نعم، قالوا: فلا حاجةَ لنا في الحياة بعدك. ثم خرج بهم فقدمهم واحداً واحداً بين يديه حتى قتلوا جميعاً، ثم تقدم فقاتل حتى قتل، وجاء قاتله إلى داود وقال: قد قتلت عدوَّك. فقال: ما أنت بالذي يحيا بعده فقتله. وأتى بنو إسرائيل إلى داود فسلَّموا إليه خزائن طالوت وملَّكوه عليهم[1].

وأقام طالوت في الملك أربعين سنة، وقيل: عشرين سنة، وقيل: إنه مات كمداً ولم يقتل، والأول أصح. انتهت ترجمة طالوت.

(١) انظر «تاريخ الطبري» ١/ ٤٧٤ـ٤٧٥. و«عرائس المجالس» ص ٢٧٦ـ٢٧٧.